مدينة تدمر

للأديب مصطفى بعيو الطرابلسي

« في يوم ١٤ يوليو انتهت حملة الحلفاء في سوريا بعد قتال استمر حوالي ستة أسابيع في تلك البلاد الشقيقة بين قوات الحلفاء من جهة وقوات فيشي من جهة أخرى ، ولقد قام مطار تدمر في هذه الحملة بدور خطير ، وتكرر ذكر هذه المدينة على صفحات الجرائد . فوفاء لتاريخ هذه المدينة وماضيها المجيد أكتب هذه السطور »

في وسط بادية الشام وجنوب خط عرض ٣٥ شمالاً ، وغرب خط طول ٤٠ شرقاً ، تقع مدينة تدمر ذات المطار الحربي في الوقت الحاضر والتاريخ المجيد في العصور الماضية ، إذ كانت تسمى باليونانية بالميرا Balmira ، أي مدينة النخل ، وباللغة العبرية « تمر » بإحلال الدال فيها ، وهذا اللفظ يرادف كلمة « النخل » . وقد ذكر المتنبي هذه المدينة في شعره ، ولكنه اشتق اسمها من الدمار حيث نراه يقول في مدح سيف الدولة الذي تغلب على بعض قبائل العرب عند مدينة تدمر :

وليس بغير تدمر مستغاثٌ وتدمر كلهـا لهمُ دمارُ

على أن المؤرخين لا يأخذون بهذا الرأي ، ويرجحون أن قول المتنبي هذا من باب الاشتقاق البديعي ذكره على طريقة الجناس ، ويجمعون على أن سيدنا سليمان هو الذي قام بتأسيسها ، ولهم في ذلك أدلة يذكرونها ، منها شهادة الكتاب المقدس في سفر أخبار الأيام الثاني وسفر الملوك الثالث ، إذ قال الكتاب عن سليمان : « فبنى سليمان جازر . . . وتدمر في أرض البرية »

ومنها أن اليهود يتناقلون أبا عن جد قصة بناء سيدنا سليمان لها ، هذا فضلاً عن أن المؤرخ الشهير يوسف اليهودي قد روى هذا في كتاب العاديات اليهودية ، وهو أحد مصادر التاريخ الإسرائيلي .

ثم إن العرب اتفقوا على هذا الرأي ولا سيما سكان البادية ، بل تراهم يزيدون على ذلك ويزعمون أن الجن هم الذين بنوا مدينة تدمر لسليمان ؛ ومما يؤيد هذا الرأي قول النابغة الذبياني ، ونحن نعلم مكانته بين شعراء الجاهلية :

إلا سليمان إذ قال الإله لهُ

قم في البرية فاحددها عن الفَنَدِ

وخيِّر الجن أني قد أمرتهمُ يبنون تدمر بالصُّفاح والعمدِ

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على بناء سيدنا سليمان لها فقد اختلفوا في سبب بنائها ، ولكن أغلبيتهم أجمعت على رغبة سيدنا سليمان في أن يجعل منها مربطاً لتجارة رعاياه ، أو كما جاء في الكتاب المقدس إحدى « مدن الخزن »

هذه المدينة التي ازدهرت أيامها في عهد سليمان كعادة المدن الجديدة في أول إنشائها لم تلبث أن تدهورت بعد وفاة منشئها وأصبحت خاملة الذكر حتى أوائل النصرانية ، حتى أن هيرودوت أبا التاريخ القديم لم يذكرها في تاريخه ، مع أنه قد زار معظم البلاد الشرقية الهامة في عصره والمحيطة بالبحر الأبيض المتوسط . وكذلك لا نجد لها ذكراً في أخبار فتوح الإسكندر فضلاً عن أن العالم الجغرافي « استرابون » لم يذكرها مع إلمامه بمعرفة الأنحاء الشرقية . كل هذه الشواهد تؤيد ما آلت إليه حالة تدمر من تدهور وخمول وهي التي كانت عامرة في أول عهدها لما اشتهرت به من غزارة مياهها ، إذ كانت تجري فيها عدة أنهار لم يبق منها سوى جدول أو جدولين ؛ أما عيونها المدنية التي اشتهرت بها منذ القدم ، فقد نضبت

وقد عثر الأثريون على كتابة نبطية قديمة في شمال جزيرة العرب ترجع إلى القرن السادس ق . م . تصف مدينة تدمر بأنها فندق متسع الأرجاء في بادية الشام ، وهذا دليل على مركزها التجاري العظيم في سابق الأزمان وتأييد لما ذهب إليه بعض المؤرخين في تعليل سبب بنائها

على أن تلك المدة التي اضمحلت فيها مدينة تدمر ما كانت إلا فترة استجمام سرعان ما عاد إليها نشاطها بعد ذلك، واسترجعت شهرتها من جديد، واسترجعت سلطانها القديم في التجارة على أثر انهيار الدولة السلوقية وكثرة الولايات المستقلة في شمال بلاد العرب والعراق التي اتخذت التجارة مهنة لها، فكانت القوافل تسير إلى بصرة وغزة وتدمر فأصبحت منذ ذلك العهد مدينة خطيرة وأخذت تتقدم عمرانياً، وأصبحت تجارة أوربا وآسيا في أوائل المسيحية في قبضة يدها. تمر بها تجارة بلاد العرب من ذهب وعطور ولآلئ البحرين وتوابل الهند وهي في طريقها إلى روما، فعرف الرومان قيمة مركزها التجاري فاستمالوها إليهم ثم ما لبثوا أن ضموها إلى أقاليمهم الشرقية وأحاطوها بالحاميات العسكرية، كما حصنوا الطريق الذي يصلها بنهر الفرات لحماية تجارتهم وتأمينها من غارات القبائل.

* * *

ومن الآثار التي عثر عليها الأثريون والتي ترجع إلى سنة ١٣٧ م مرسوم أصدره مجلس شيوخ المدينة لحسم الفتن التي قامت بين التجار ومأموري الخزانة من أجل المكوس وارتفاعها إذ كانت البضائع الصادرة أو الواردة تجبى عليها ضريبة ثابتة ثم ضريبة أخرى تختلف باختلاف قيمة البضائع ومقدارها، وقد عرفنا من هذه النقوش أيضاً نوع التجارة التي كانت تمر بمدينة تدمر وهي بالإضافة للأنواع السابقة عبارة عن دقيق وزيوت عطرية وغلال وأثمار يابسة وملح من ممالح تدمر الكثيرة في ذلك العهد مما جعل لأهلها شهرة خاصة في قيادة القوافل التجارية عبر الصحراء لحسن خبرتهم بالطرق ولاستعدادهم لمقاومة أهمال قطاع الطرق. فلا عجب بعد ذلك أن شابهت تدمر البندقية في العصور الوسطى من حيث المركز التجاري. وكانت تدمر تحتفظ لنفسها بنصيب من دخلها السنوي بعد أن تؤدي إلى روما الجزية المفروضة عليها.

هذا كل ما يمكن أن يقال باختصار عن تجارة تدمر في أزهى عصورها. وقد تكلم في هذه الناحية بتوسع كل من الأستاذ « نولدكه » ، « ساخو » ، « دي ڤوكويه ». وعرفنا من النقوش السابقة الذكر أنه كان لتدمر مجلس وطني يسن القوانين ويتألف من رئيس وكاتب وعدد من الأعضاء. وكانت السلطة التنفيذية في عهدة شيخين وديوان يتكون من عشرة حكام. أما السلطة القضائية فكانت من اختصاص بعض الوكلاء.

أما لغتها الرسمية فكانت اللغة اليونانية كما هي العادة في جميع الممالك الرومانية الشرقية؛ ولكن أهلها كانت لهم لهجة خاصة هي اللهجة الآرامية وهي قريبة من السريانية. ويقال إن المسيح عليه السلام قد تكلم بها، ولكن هذا لم يثبت بعد. على أن الخط التدمري إلى الآن لا يعرف المؤرخون صورته حق المعرفة في القرون السابقة للمسيحية، لأن جميع الكتابات والرسوم التي عثر عليها حتى الآن ينحصر تاريخها فيما بين القرنين الأول والرابع المسيحيين، وأقدم هذه الكتابات لا تتعدى السنة التاسعة قبل المسيح. ويؤكد المؤرخون أن تدمر قد اقتبست صورة حروفها من الفينيقيين

* * *

اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي خضعت فيها تدمر لحكم الرومان ولكنهم أجمعوا على أنها لم تتبع روما قبل سنة ٣٦ م، وعلى الرغم من خضوعها لروما كانت تتمتع ببعض الحقوق المدنية، ومنحت امتيازاً خاصاً يخولها السيادة على جميع البلاد المجاورة لها. ثم تطورت العلاقة بين تدمر وروما إلى شبه محالفة لا سيما بعد أن أخذ أمر بني ساسان يستفحل وهم الأعداء الألداء لروما وأباطرتها.

ثم انتهى الأمر في تدمر بقيام رجل من أبنائها ينتمي إلى بني السميدع ويلقب بأذينة، تمكن من إعلان سلطانه على تدمر وإخضاع قومه، واتخذ له لقباً ملكياً في سنة ٢٥٠ م، ولكن

سرعان ما أفاق هذا العمل بال الأمبراطور الرومانى واستطاع أن يتخلص منه بقتله ؛ ولكن سلالته استطاعت أن تحتفظ بعرشها وعملت على تحسين علاقتها مع روما ، بل نرى أذينة الثانى يحارب الفرس إلى جانب الروم مما كان له أحسن الأثر فى نفوس الرومانيين . ولكن أذينة الثانى لم يعمر طويلاً إذ اغتاله ابن أخيه لحقده عليه ، وتولت إدارة شئون البلاد زوجته الزباء وصية على ابنها الكبير « وهبلات » ونجحت فى إدارة شئون الدولة وقامت بأعمال جليلة وعملت على تعمير البلاد . وما زالت آثارها باقية تخلد اسمها ؛ مع أن الاهالى يخلطون بينها وبين ما فعلته « زبيدة » زوجة هارون الرشيد ومن الصعب تعقب أخبار هذه الملكة فى سطور لكثرتها وقد نشر الأستاذ فريد أبو حديد قصة تاريخها فى مجلة الثقافة .

ومما يلفت النظر أنه على الرغم من شهرة هذه الملكة فإن الغموض يحيط بتاريخها ، فنجد مثلاً مؤرخى العرب ينسبون إليها قصة مع أحد ملوك الحيرة ، وقد أورد لها ملخصاً المسعودى فى كتابه مروج الذهب ولكن بعض المستشرقين وعلى رأسهم الأب سبستيان رنزفال اليسوعى يشك فى صحة هذه القصة

توترت العلاقات السياسية بين زينب ملكة تدمر وروما وانتهى الأمر بأسرها بعد حرب شاقة وتدمير المدينة مما دفع أهلها للقيام لأخذ ثأرها ؛ ولكن القائد الرومانى « أورليانس » قابل هذه الحركة بتهديم المدينة . وهكذا تدهور حال المدينة وأخفى عليها الدهر إلى أن جاء بنو غسان فاتخذها بعضهم منزلاً له وبقيت على حالتها المتأخرة حتى فتحها المسلمون فى سنة ٦٣٤ م عندما مر بها خالد بن الوليد فى حملته إلى سوريا

مصطفى بدير الطرابلسى
كلية الآداب . اسكندرية

الافصاح

المعجم العربى الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية فى العلوم المختلفة ، ولا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة

ومن مؤلفيه :

فهيم يوسف موسى — عبد الفتاح الصعيدى
المدرس بالمدرسة السعيدية — رئيس التحرير
الثانوية بالجيزة — بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

الحياة الزوجية

من الوجهتين التشريعية والاجتماعية

تأليف الأستاذ محمود على قراعة المحامى

من موضوعات الكتاب : على هامش الحب والزواج ، كلمة الحب ، تطور الحب ، سقطات الحب ، مرمى الحب ، المرأة والحب ، الحب شغل المرأة الوحيد ، مقدمة الحب ، كسب الحب ، من هو الحبيب ؟ ما يجب قبل الزواج وبعده ؟ الاستعداد للزواج ، أزمة الزواج ، انحلال المثل الأخلاقية فى النفوس ، تحريم الصداق ، العزل ، منع الحمل ، الزنا ، الفواحش ، كيف تهوى الفتاة ؟ كيف يفسد الفتى ؟ المثل الأعلى للزوجين ، مساوىء الاختلاط ، واجب الزوج ، أحكام الحياة الزوجية فى الشريعة ، أركان الزواج ، موانع الزواج ، المحللات والمحرمات ، تعدد الزوجات وتقييده ، المهر ، الجهاز ، النفقة ، التفريق للضرر ، الطلاق ، الخ . . .

يقع فى ١٨٠ صفحة على ورق مصقول
وثمنه ٦ قروش صاغ والبريد ١/٥ قرش ونصف
ويطلب من مكتبة الجامعة بشارع محمد على بمصر